روايات الحسناء

فزع سلمى

غابت الشمس . فعاد الناس الى منازلهم يشكون سوء الحال . ولم يبق خارج المدينة الا الملتهي بالعرق والبيرا . وكان حديث الجميع في ذلك اليوم فتنة الاستانة والناس خائفون من الانقلاب السياسي واستتباب السيطرة للمستبدين والرجوع الى الماضي . وهم لم يتنزهوا يومئذ في البرية حباً بالطبيعة ورغبة في استجلاء بدائعها بل ضاقت بهم رحاب المنازل فغادروها متبلبلين الى حيث يتلاهون عما يقلقهم . ولكن ذلك لم يجدهم نفعاً اذ كانت الاخبار راسخة في اذهانهم لم تلهيهم عنها المناظر الطبيعية ولا دقيقة قصيرة حتى ان الذين شربوا المسكرات بقصد التسلي ندموا لانها نبهت احساسهم فزادتهم شعوراً بخطارة موقف الدولة . وبديهي ان العثمانيين كافة لم يمر عليهم اسبوع في هذا القرن اشد قلقاً من اسبوع الفتنة . ولا غرو لان السلطان عبد الحميد المخلوع كان آمراً باضرام نيران الثورة وذبح المسيحيين والدستوريين في العاصمة وكل الولايات استرجاعاً لسلطته المطلقة . والحمد لله فقد خاب قصده

وكانت السيدة سلمى ملازمة البيت كل النهار لم تذهب الى الكنيسة لسماع القداس كعادتها في كل احد وعيد . ولا زارت صديقاتها كالعادة . ولا راحت الى النزهة شأنها كل مساء حتى انها لم تتقن الـ (تواليت) ولا اهتمت بها بل اكتفت بالـ (روب دي شامبر) والـ (كوافير الا بيبرج) لان الرعب حل بها والخوف قد استولى عليها فلم تعد تهتم على شيء من لوازم الزينة وفقدت شاهية الطعام والخبز استطاعت شرب الحليب . وصارت تتوهم صوت الكبسولة دوي رصاص وهذا طلق مدفع . واوجست خوفاً من كل مسارة ووشوشة وتراءى لها في الاجتماع مؤامرة وفي التجمهر ثورة وفي الغناء بكاء وفي النداء ولولة . وبقيت على هذه الحال اياماً وجفناها لا يذوقان طعم الكرى الا قليلاً حتى خارت قواها وشحب لونها وتكدر عيش العائلة كلها

لحظ ذلك الجيران فجاءت السيدات مريم وسارة ووردة ليثبتن جأشها ويطمئن بالها فوجدن اثار البكاء ظاهرة عليها فاستفهمنها علة بكائها لعلهن يستطعن تفريج غمها وتسليتها عما بها فاجابتهن والدمع يتلألأ في عينيها — ان البكاء دليل اشتغال القلب وقلبي اليوم ملتهب جزعاً — فاستوضحنها الامر فاذا هو حالة الدولة الحاضرة التي رعبتها الى درجة لم تعد فيها

تحتمل البقاء تحت ظل الهلال فحاولت جهدها اقناع اخوتها وقرينها وبنيها بمغادرة الوطن الى مصر او اوربا فلم يوافقوها على رأيها اولاً لوفرة اشغالهم واهميتها ثانياً لعدم امكانهم القيام بنفقات السفر والتغرب بسهولة ويسر ثالثاً لاجتراء بعضهم على اقتبال هذه الحوادث دون وجل لتشيعهم قوة الدستوريين وتعقل الاتحاديين وحسن نياتهم وتأكدهم وثقة اهل المدينة وولاء مجاوريهم وارتباطهم بسلاسل الاتحاد المكينة ورابعاً لئلا يكونوا قدوة سيئة لمواطنيهم بالهرب فيتأثروهم في حين ان الامة باشد احتياج الى ابنائها على اختلاف المذاهب والطبقات · فاستسلمت اخيراً الى اليأس والتجأت الى مراحم الله بالتضرعات

وبينما هن يتحدثن عن احوال البلاد والخوف المستولي على ضعيفات القلوب ويصفن ما يعلمنه من اضرار الحالة للناس ونتائج الذعر في النفس وتأثيره في الجسم والعقل ورداءة عاقبته الادبية والمادية · وكل منهن تعدد حوادث خوفها وتفاخر غيرها بانها اجرأ منها · تنهدت ربة البيت وقالت من فؤاد مرعوب — حسبنا الكرب يا صديقاتي وكل جريئة مقدامة

فخجلت الزائرات جميعهن ولم يتسعن ايضاً الموضوع وبدون تقيد بحديث مسر وطلبن السيدة مريم البيان تقص على رفيقاتها رواية تلك الحادثة التي جرت لها من بضع سنوات كمثال خوف انساني يحسن به الحديث · فتمنعت في بادىء الامر وتأسفت ولما تعذر عليها من الكلام قالت

— كنت مرة انزه مع شقيقي وحيد في البرية بعيداً عن البيوت والطرق المطروقة حيث لا بشر ولا طرق · فسمعنا صوت معركة متقطع يتراوح بين اليأس والامل فخفت ووقفت وحتمت بالرجوع لئلا يتقدم رفيقاي اللذان رأيتهما يهمان بنجدة المستغيث لانها بداعة الا التقدم لنصرة المظلوم فاستعطفتهما كثيراً لم يصغيا وبعد جهد تركتهما يذهبان على ان يستطلعا الامر فقط دون ان يتداخلا بين المتخاصمين وبقيت انتظر انباءهما ممسكة بيديها وقلبي خافق وركباي ترتجفان فوجدا ثلاثة رجال اقوياء منقضين على انسان يضربونه الضرب العنيف شوكة الجبابرة وبقلوبهم حتى كل ساعداه ولم يعد يحتمل الثبات بلا موازرة فاستجمعت كل قواي بيدي لاتمكن من منع القريب والشقيق عن الاقدام على مساعدته ولم الحق صياحهما من شدة الخوف وقد يستقوي الضعيف في حالة اليأس ويستبسل العصفور · بل حتمت عليهما حتماً بالتباعد عن محل الخصام والتطلب بديلنا الى حيث نأمن شر المتضاربين وكدت لولا القليل اغشي علي من الجزع الاراني الى المضروب وخشية عاقبة كثرة تأثري فحملاني وسارا مكرهين بي · والمسكين يستغيث ولا مغيث والدم يسيل من جروح رأسه على خديه فيصبغ

اصفرارها الاحمرار . على اني لو تركتهما قيامًا بواجب الانسانية وكما يجب ان يؤمل من بنات جنسي لعاودها على الاشقياء وثاروا عليهم وخوفي واياها من رجوعهم الينا . ولكن من اين لي الجراءة على احتمال مرأى القتال وانا ربيبة الجبانة من صغري . اليفة الخوف . حليفة الفزع يهولني الصرصور وترعبني كلمة بُه

ولما سلب الاشقياء الرجل واغتصبوا دراهمه وكانت بقيمة قروش فقط اقدموا على [illegible] اذ توازه الحمية فختموا تمثيل الرواية المحزنة بتقييد الجريح الى شجرة انتقامًا منه لمقاومته في وعدم حمله ليرات . وساروا في سبيلهم ساخطين . وكنا نحن لانزال قريبين من مرسح تمثيلهم وناظرين اليهم من خلال اشجار الغاب دون ان نعلم انهم ابصرونا ولاحظوا تجنبنا شرهم فاستضعفونا وهموا بنا . فسألني اخي السماح له بالاسراع لفك وثاق الرجل وتخليصه ووقايته خطر الموت بضمد جروحه لئلا تستنزف دماؤه فيموت . فابيت مطلقًا حذرًا من عودة الاشقياء الينا وكان الاولى بي ان اذهب بنفسي الى عمل هذا الواجب الانساني ان لم يكن معي احد ولو تعرضت لخطر او احض اخي على ذلك ان لم يكن بوده وكان الاجدر به ان يتركني مع قريني ولا يراعي مخاوفي واوهامي ويسرع الى تنفيذ عزمه المبرور ولو أُغشي عليّ وكان الاحرى بعيوه ان يسبقه الى انقاذ الاسير ولو قيل عنه انه لايحترم ارادة قرينته

وهكذا الخوف قسّى قلبي وحجّر عواطفي فتركنا ذاك المسكين وشأنه وسرنا كمن فقد الرحمة وعدم الشعور . وما بعدنا كثيرًا حتى رأينا الجماعة مرتدين على اثرنا فاسرعنا فنادونا قفوا — وتهددونا باطلاق الرصاص . فلا تسلن يا صديقاتي عما اعتراني لما سمعت كلامهم هذا ومن مبلغ ذعري الآن قد تستطعن تقدير بعض ما انتابني حينئذ من هلع الفؤاد . اذ حالما سمعت نداءهم وتهديدهم جمد دمي في عروقي وارتجف بدني وخارت قواي فارتميت على الارض غائبة عن الوعي لا استطيع حراكًا ولم افق الا والاشقياء تبدلوا اصدقاء فرأيت حولي رفيقي وثلاثة رجال عرفتهم حالًا بانهم من ابناء حينا (القبضايات) فهممت بالنهوض فورًا لاشكر مجيئهم الينا عند الحاجة اليهم فلم استطع من شدة تأثري وكانت كلمة الشكر اول ما فاه بي لساني لما وعيت ثم سألت كيف انتهى الامر مع اولئك الاشقياء ومن اي جهة ساروا فابتسم اخي واجاب : فزنا عليهم وصرنا بأمن منهم فلا تخافي . فقلت . الا يتأثرونا بعد . فتبسم الجميع وقالوا . لا . فاطمأننت نوعًا ما وبقيت ريثما نلت بعض الراحة واستجمعت بعض القوى وقمت متألمة وسرنا عائدين الى البيت يخفرنا الثلاثة معًا بعد ان بست الارض شكرًا لله وفيما نحن سائرون لحظت ما رابني من الرفاق فتحذرت وتجدد خوفي .

دون الله وبلغنا الطريق العام حيث كانت المركبة بانتظارنا فركبناها بعد ان شكرنا مرافقينا وأثنيت على حميتهم وتخليصهم لنا (كذا) واشرت من خوفي الى الخوذي بالتعجيل فسارت الخيل تنهب الارض نهبا فخفت ان تصدم المارة واحترت بين الامرين العجلة وربما نتج عنها اصطدام او التاخر والحاجة الى بلوغ البيت وقد عرضت السائق مراراً للخطر بالحاحي ومترادفاتي (عجل · دير بالك · اوعى) فكان المسكين لدى كل كلمة لا يسمعها جيداً بسبب العجل فاعيدها عليه ولما راى كلماتي كلها ذات معنيين فقط ما عاد ردَّ علي وحسنا فعل لانه بالحاحي اياه ربما كان صدم احدا او اوقع المركبة في القناة كما كاد يجري لنا في احدى طرق الجبل مرة وكدنا بهذا السبب نصير طعاماً لثعالب الوادي وشراباً لاحجار المنحدر · ولم اجسر في الطريق على الاستفهام عما حدث مدة فقدي الشعور بل ما زلت الهث من التعب والوجل حتى بلغنا البيت حيث لم يعد قريبي يتمالك من الضحك (علي) وما اشد ما كانت دهشتي لما اخبرني ان الذين كانوا معنا هم الاشقياء انفسهم وانهم لم يعرفونا كما انا لم نعرفهم الا بعد ان وصلوا الينا وفكوا لثاماتهم وانهم اعتذروا كثيراً على ما سببوه لنا وتعجلوا بارتكابهم ذاك الجرم وقسوتهم على ذاك المسكين فبادر احدهم حالا الى فك وثاقه واطلاق سبيله بناء على اشارتهما وخلعوا بعض اثوابهم لئلا اعرفهم فارتعب واتهمني صريحا بأني لو تركته وأخي يتقدمان للمدافعة عن الرجل لعرفوهما حالا وكفوا عن ضربه ولم يقيدوه وكنا اتقينا مشقة الفصل الثاني من روايتهم لانهم قالوا بان تخبئنا اياهم وعدم مدافعتنا عن فريستهم اطمعهم بنا اذ رأوا جبناء لكن لا مروءة عنده وتوهموا ايضا انا اغبياء نحمل الذهب معنا ولربما لاحق هذا الخاطر منهم طرقنا والحق بنا بعد ان كانوا ذاهبين عنا

هذا مجمل الرواية باحزانها ونتيجتها كانت تأثيراً شديداً في صحتي اضطرني الى ملازمة سريري اسبوعين كاملين

ولعلكم تتساءلون عن اسباب هذا الخوف ولربما تستغربونه ايضاً لو لم يكن متوفراً بين بنات جنسنا بالنسبة للتربية المألوفة في بلادنا التي ان لم يكن من مساوئها ومفاسدها غير تخويف البنات من الحكيم والخوري والمعلمة والراهبة والقبيرة والدب والبارودة والسكين فضلاً عن الجنية والعفريت والمارد والغول والشيطان — لكفاها مساوىء ومفاسد

ومع كل ذلك لا نهتم باصلاح هذا الخلل العائد علينا بالضرر والمتصل تأثيره برجالنا ايضاً وهم مثلنا باصلاحه لا يهتمون